تعظيم المرأة

١

فى الحب

لا يستطيع امرؤ أن يحتفل بالربيع دون أن يتغنى بالأزهار ، ولا يستطيع أن يتحدث عن المرأة الحديث اللائق بها دون أن يتناول حديثه موضوع الحب . إن المرأة هى « الرافعة » الرشيقة التى تدعم التقدم ، والحب هو نقطة ارتكازها . فالحب يوحى عواطف البطولة ويعين على تحقيقها ، وهو الحافز إلى المجد ، والخالق الطروب الخصب الذى يوحى نبيل الخواطر ويبدع أكرم الفعال . وكلما خلص الحب وحلق فى سماء المثل العليا ، تحول إلى عبادة حقيقية ، إلى دين قدسى ، تتبوأ فيه المرأة مكان الألوهية التى تزجى الخير . وعلى قدر ما يرفع شعب من منزلة المرأة ، تكون منزلة الشعب نفسه ؛ فإذا سما بها ارتقى . وإن الوضع الاجتماعى الذى يحدد للمرأة فى مختلف بيئات المجتمع البشرى لميزان تقدّر به درجة الحضارة التى بلغها الأفراد وبلغتها الدول .

وفى عصر الفروسية ، يتميز الحب تميزاً عميقا وجوهريا عما كان عليه فى ظل الرومان واليونان ، وذلك أنه بعد أن كان ساذجا فطريا أصبح

مهذبا خاليا من شوائب الحس . فقد حل محل بساطة العواطف القديمة لون من الابتهال الصوفى أنجب التورع ومغالبة النفس وألوانا من العذاب لم يكن من داع لها . وصار الحب تقوى . ولم يكن من المهم أن تصبو التقوى إلى كائن حقيقى أو خيالى ، فالعقيدة هى أن تحب . ذلك أن الحب فضيلة ، بل ومنبع الفضائل كلها ، ومن هذه الناحية كان جميع الفرسان من الصالحين،لأنهم أحبوا أو كانوا على الأقل مقتنعين بأنهم يحبون . وهكذا غدا الحب منهجا من مناهج التربية ، واعترف له القوم بأنه مبدأ كل نشاط ، وأساس كل فضيلة أخلاقية وكل مجد . يقول « ريمبودى فاكييراس » (Raimbaud de Vaquieras) : « إن الحب يحسن ويهب قيمة للأهون . يستطيع أن يصنع من الجبان شجاعاً ، ومن الجلف رقيقاً ، وكم من الفقراء علت بفضله مراتبهم ؛ وما دام الحب زاخراً بمثل هذه السجايا ، فإنى لأود — أنا الطامح إلى الجدارة والشرف — أن لو كنت محبوباً ». ونحن نجد هذه الفكرة ذاتها لدى أديب عربى قال بصدد الحب : « إن أقل حسناته أنه ينبت وينمى فينا الكرم والشجاعة والعادات الطيبة وسمو النفس ، بحيث يصبح كل مطمع المحب أن يرضى حبيبه ، إذ يتحلى بكريم العواطف والمحامد »[1] .

ولقد أصبحت حسنات الحب فى القرون الوسطى موضع إيمان

---

(١) ديوان الصبابة .

لا جدل فيه ، وقام الحب فى الواقع مقام منظمة اجتماعية شبه دينية ؛ فكانت له رموزه ، وقوانينه ، ومحاكمه وكهنته وشهداؤه . ولقد كانت السيدة ترسل لفارسها الأثير أردانا طويلة عريضة يستخدمها راية له فى المباريات ، وضفائر شقراء ، وقفازات ، وأقمشة هفهافة وحبالا مطرزة بشعار بديع . وقد جمع « المعلم أندريه » كاهن ملك فرنسا — نحو سنة ١١٧٠ — قوانين هذا الحب الشاردة ، وتشكلت — منذ القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر — « محاكم الغرام » من أعرق السيدات نسبا وأشهرهن معرفة ، وأصدرت أحكاما تشهد لهؤلاء القاضيات بالدراية والرقة فى مسائل الأدب ومنازعات الحب . وكان المسبحون باللغة من شعراء ذلك العهد يتغنون بجمال « كوبيدون » فى صباه ، ويرددون قصص الغرام المتواترة ، فى حين يمضى العشاق لملاقاة حتفهم أو يستسلمون للسقم حتى يدركهم الموت ، من أجل أميرة القلب وسيدة الأحلام .

فما أصل هذا الحب الجميل ؟ وما الذى أثر فى اتجاه الحب القديم حتى آحاله من مبدأ للشر وعقبة فى سبيل الخير إلى منبع للشرف وخصيصى يمتاز بها الأصفياء وحافز إلى جليل الأمور ؟ إن أصواتا عالية عديدة تجيب إجابة واحدة عن هذا التساؤل بأنه « من المسيحية ومن الأخلاق الجرمانية قد تولد ذلك الحب الفرسانى » .

والحق أن المسيحية قد نادت العالم ووجهته إلى التوحيد بين الحب

والنقاء ، مما لم يكن معروفاً لدى القدماء [1] ؛ ومن الحق أيضاً أن المسيحية قد أوحت إلى قساة المقاتلين فى القرون الوسطى عواطف إنسانية نبيلة رقيقة ، وأن تعظيم العذراء مريم قد أدى بصورة قوية إلى تحسين حال المرأة ؛ ولكن الدين والكنيسة ما كانا ليستطيعا أن يؤثرا فى آداب الرقة الجديدة وهى التى تخالف — بما تعرض له الرجال والنساء من أخطار محببة — جوهر النقاء المسيحى . ولسنا فى حاجة إلى أن نستشهد بصاحب سفر الجامعة ، وزواهى الآباء الروحيين الصارمة العابسة[2] ، أو بكتابات القرن الثانى عشر التى تشبه المرأة بالشيطان وتذهب إلى اعتبارها ناقصة العقل والخلق ، لكى نثبت أنها لم تكن قط موضع تقديس العهد القديم أو العهد الجديد ؛ ولسنا فى حاجة أيضاً إلى أن نذكر بأن سادة الحقبة الأولى من القرون الوسطى — على الرغم من اعتناقهم المسيحية — كانوا لا يبدون أى احترام للمرأة ولا للحب المثالى . وإن واقعة واحدة لتكفى دليلا على ذلك ، فإنه إلى جانب الفروسية الدينية — التى نظمها الكهنة لصون الإيمان — قامت فروسية حرة عالمية ، نظمت كالسابقة تحقيقا لغرض دينى واجتماعى ، ولكن الكهنة لم يشرفوا عليها ، بل نشأت مستقلة عنهم ،

---

(١) انظر جان — جاك أمبير (J. -J. Ampère) : منوعات من الادب وتاريخ الأدب. الجزء الأول . ص ٢٢٧ .

(٢) أقوال القديس أمبرواز (Saint Ambroise) وترتوليان (Tertullien) ومداولات مجمع ماكون (Concile de Mâcon) .

فقتوها وناصبتهم هى العداء . هذه الفروسية التلقائية الحرة العالمية ، هى التى أصبح الحب والتودد والكلف بالمغامرات وتمجيد الشرف الحربى ، روحها وحافزها[1] .

أفتكون الأخلاق الجرمانية إذن هى التى ولدت عواطف الحب الرفيع فى قلوب الفرسان ؟ يا لطالما أشاد الكتاب بنقاء الأخلاق الجرمانية وهم لا يعرفون بعد حقيقتها ؛ فيحدثنا « تاسيت » تارة عن « فاليدا » (Valléda) وكيف أكرمت إكرام الآلهة ؛ ثم يجرى المؤرخون من بعده على نهجه فيطنبون فى امتداح الورع الشامل الذى عامل به الجرمان نساءهم . فى حين أنه يكفينا ــ دون أن نستغل فى ذلك الأحداث الأخيرة التى جلت أخلاق الجرمان ــ أن نلحظ أنهم ما كانوا يكرمون من النساء سوى بعضهن ممن كان الجرمان يعتقدون أنهن ينطق بلسان الآلهة (أى النبيات)[2] ومن ناحية أخرى ، فإنه ما أن يلقى الإنسان نظرة فى المجتمع الجرمانى حتى يتبين أن هذا المجتمع الذى اعتمد على مبدأ القوة ، لا يفسح للضعفاء إلا مكانا ضيقا محدوداً . يقول مينيه (Mignet) : « كانت المرأة لا تملك نفسها ، ولا تتصرف فى شىء ، بل كتب عليها أن تعيش عزلاء من تلك القوة التى كانت وحدها تكفل الحرية والملكية فى مجتمع عنيف . وما كان للطفل ولا للشيخ قيمة ، لأن الأول لم يكتسب بعد تلك القوة ،

(١) فورييل : تاريخ الشعر البروفنسى . الجزء الثالث . ص ٣١٢ وما يليها .
(٢) انظر سيسموندى : فى أدب جنوبى فرنسا . الجزء الأول . ص ٨٩ .

وأما الثانى فقد انقضى عهده بها ، ولذلك كانا يشتغلان بالخدمة وبشئون البيت (تاسيت : الفصل السادس عشر) ، وكانا يعيشان تحت وصاية ذلك القوى الشجاع المتعطل ، المحترف القتال والذى يتشرف بأن يخدمه سواه . وكانت المرأة تظل مقصورة دائما ، فإذا لحقت بها إهانة ، استولى الوصى على التعويض الواجب فى مثل ذلك . ولما كانت هذه الوصاية مربحة ، فقد كانت المرأة أو الفتاة أو الأرملة التى تخطب تبتاع من الوصى عليها . ولا شك فى أن هذه الوصاية المتصلة ، ومثل هذا الابتياع ، لمن الدلائل القاطعة على انحطاط مستوى المرأة . وتلك حال يعللها — فى آن واحد — ضعف المرأة وعنف المجتمع الذى تنتمى إليه »[1].

حقاً إن الألمان قد عرفوا فيما بعد لونا من الرقة ، « واحترموا السيدات — أى نساء السادة — إلا أنه كان احتراماً أشبه باحترام الخدم لمولاتهم ، فلم يكن تعظيما لنساء الشعب ، بل كان موجها للطبقة لا للجنس »[2] .

وليس هذا اللون من احترام الخدم للسادة هو الذى يشرح لنا تحول الحب القديم إلى الحب الفرسانى . ولن يجدينا البحث فى أخلاق الجرمان وفى أساطيرهم عن أصل الحب الفرسانى . فقد « كان الرجال فى تلك الشعوب — على الرغم من احترامهم النساء وإشراكهم إياهن فى المجالس

---

(١) مينيه : « كيف دخلت جرمانيا القديمة فى المجتمع المتحضر بأوربا الغربية » فى « مذكرات أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية » سنة ١٨٤١ ، الجزء الثالث ، ص ٧٩٢

(٢) لافيس : التاريخ العام . الجزء الثانى . ص ٤٧ .

والمعابد – يظهرون لهن التشريف أكثر مما يضمرون لهن الحب ؛ فقد كانوا لا يعرفون التودد ، وكانت صفاتهم من الشجاعة والولاء تسيطر عليها الخشونة ، فلا تكاد تنبئ بتطور البطولة فيهم وتساميها ؛ وكان خيالهم قاتما ، وكانت القوى المهيمنة التى دفعتهم خرافاتهم إلى الإيمان بها ، قوى شريرة . وإن أقدم قصيدة من الشعر الألمانى – كما انتهت إلينا اليوم – نعنى قصيدة « النيبلونجن » ، هى أثر أدبى ألمانى سبقته قصص « الفرنك » الأولى ولعلها أثرت فيه . ونحن بدراسة هذا الأثر الأدبى ، لا نجد أن الأخلاق التى تشيع فيه هى أخلاق الفروسية . فكان الحب من الحوادث ضئيل ، والأبطال يهتمون بأغراض وعواطف غير التى تقتضيها الشهامة ، وقليلا ما تظهر النساء، ولسن على أى حال موضع تعظيم ، بينما يبدو الرجال ولم يلن اقترانهم بالنساء من شدتهم أو يهذبهم »[1] .

وهكذا لا تشرح لنا المسيحية وحدها ولا الأخلاق الجرمانية وحدها ، ولا هذان العاملان مجتمعين ، كيف خلص الحب من الشوائب فى القرون الوسطى . وإلا فما بال المسيحية لم تؤثر نفس التأثير فى جميع الأقطار التى سادتها وهذبتها ، وما بال الحب العفيف يزدهر فى بلاد غير مسيحية ؟ وما بالنا لا نرى – فى الفترة التى تنقضى بين غزو الجرمانيين لبلاد « غالة » فى بداية القرن الخامس وبين فجر الفروسية فى العصور الوسطى – أى إشارة إلى عواطف الرقة والتودد ؟

(١) سيسموندى : المرجع السابق ذكره . الجزء الأول ، ص ٢٦٥ وما يليها .

على أنه من الثابت – فضلا عن ذلك – أن الحب الفرسانى ، كمنظمة الفروسية ذاتها ، قد ظهر أول الأمر لا فى جرمانيا ولا فى شمالى أوربا ، بل فى الجنوب ، فى « البروڤانس » . ومن جهة أخرى لا يمكن إنكار ما للحضارة العربية من فضل على العواطف فى جنوبى فرنسا وإسبانيا ، أو إنكار القربى – ولعلها التطابق – بين الحب الفرسانى والحب العربى .

وقد يكون من الممل أن نجمع بالتفصيل أوجه الشبه بين بعض أبطال قصص العصور الوسطى وبعض الشخصيات العربية – الحقيقية أو الخرافية – ، وأن نوازن مثلا بين حب عنترة وعبلة وحب « أماديس وأوريان » ، حين نلاحظ بصورة عامة ، أن رقة المشاعر ، ونشوة الحب ، وتعظيم المرأة ، مما عبر عنه أدب الجنوب بأجمعه تعبيراً لطيفا – تبدو كلها كما لو كانت مترجمة عن العربية ، وذات صبغة شرقية دائما[1] . إن هذا اللون ليبدو جليا فى بعض أغانى « الطروبادور » ، ولعله قد بلغ « دانتى » و « بترارك » ومدرستهما[2] .

على أن هناك أوجه شبه أروع إن لم تكن أدل ؛ فهذا فورييل يقول : « قد لا يكون فى تاريخ حضارة جنوبى فرنسا شىء أخص وأروع

---

(١) دليكلوز (Delécluse) : دانتى وشعر الغزل ، ص ٦٣ . – جانجنيه (Ginguené) : تاريخ الأدب الإيطالى ، الجزء الأول ، الفصل الخامس .

(٢) بويميجر (Puymaigre) : أدباء قشتيلة القدماء ، الجزء الأول ، ص ٣٩ .

من اختلاط روح الفروسية وروح الشعر واتحادهما اتحاداً وثيقا ؛ فمنذ اللحظة التى أصبح فيها الحب عبادة وأصبحت أغانيه ضربا من الترانيم ، أصبحت القدرة الشعرية هى المكمل الذى يكاد يكون لازما لغزل الفرسان وبالتالى للفروسية ذاتها ؛ فلقد غدا كل سيد — كبيراً كان أو صغيراً — فى حاجة إلى قرض الشعر ، فاجتهد فى نظمه ، وكان المعهود فيمن لا يقول شعراً أن يتذوق شعر سواه »[1] .

وتلك خصوصية عربية فى جوهرها ، لأنه يمكن القول دون مبالغة : إن جميع العرب كانوا شعراء على السليقة كما كان « مسيو جوردان » ناثراً على السليقة[2]. وعبثا نبحث عن فارس أو بطل عربى على حظ من الشهرة لم يكن شاعراً أو لم يتغن بشجونه وحبه . على أن جميع الشعراء كانوا متيمين ، وقد حرصوا جميعاً على الترنم بهواهم — حقيقيا كان أم خياليا — فى شعر عذب رقيق .

وهكذا نرى جميع شعراء جنوبى فرنسا المعروفين باسم « الطروبادور » يحبون أو يتكلفون الحب ؛ كما كان جميع شعراء العرب ، يحبون أو يتكلفون الحب كذلك .

وكان « الطروبادور » يقصدون القصور ومجالس الأمراء ، كما كان الشعراء العرب يقصدون بمدائحهم ويتحفون بجديد إبداعهم الخليفة

---

(١) فورييل : المرجع السابق ذكره . الجزء الأول ، ص ٥٢٩ .

(٢) بطل مسرحية موليير الفكاهية : المثرى النبيل .

أو رؤساء القبائل ، أو الوالى أو العظماء .

وكان « الطروبادور » يصطحبون المنشدين ينشدون أبياتهم ، وكذلك كان « الرواة » لدى العرب — وهم تلامذة الشعراء — يرافقون أساتذتهم وينشدون قصائدهم .

وكان المنشدون فى جنوبى فرنسا يعزفون بقيثارة ذات ثلاثة أوتار ، تشبه تمام الشبه عود الرواة الأندلسيين ، ورباب الشعراء الشعبيين المصريين الذين ما زالوا يروون مغامرات عنترة وأبى زيد .

وكان « الطروبادور » كشعراء العرب ، والرواة كالمنشدين ، مولعين جميعاً بالمناظرات والمعارضات .

وأخيراً « كان حفظ السر والتكتم من شروط الحب الفرسانى وقيوده ؛ فعلى قدر افتخار الطروبادور بإذاعة أن سيدة كريمة المحتد تعشقه ، فإنه كان يحرص فى الوقت ذاته على إخفاء اسم تلك السيدة . وما كان ليصرح باسمها فى شعره أبدا . وإنما يكنى عنها بما تفهم هى معناه وتدرك مرماه ، ويذهب فى تأويله كل مستطلع بما يعن له »[1] ، وعلى هذا النحو تغنى « ريمبودى فاكيبراس » بـ « بياتريس » أخت « بونيفاس دى مونفيرا » (Boniface de Montferrat) مكنيا عنها بـ « الفارس الوسيم ».

وكذلك كان الأمر عند العرب ؛ « فلم يكن الشاعر يمتنع عن تسمية

(١) فورييل ، الجزء الثانى ، ص ٢٣ .

من يحبها فحسب ، بل كان يشير إليها بالمذكر ، فيقول مثلا : « من يحبه قلبي » ؛ كما كان يطلق عليها أحيانا اسما غير اسمها ، فيدعوها « ليلى ، أو هند » مستخدما هذه الأسماء التقليدية التي أصبحت مرادفة لصفة العشق ، تخليداً لأولئك العاشقات الشهيرات . وهكذا لا يجرى اسم الحبيبة الحقيّ العذب على غير لسان عاشقها ولا يداعب سوى شفتيه»(١)

والآن وبعد أن لاحظنا ألوان هذا التشابه ، فلنتحدث فى إيجاز عن الحب العربى .

والحب فى كل البيئات سواء ، مقدس لا يدرك بالعين ولا سبيل إلى تعريفه أو كشف حقيقته ، وعلى الرغم من ذلك قد عنى العرب منذ أقدم عصورهم بتحليله وتعريفه وبحثه من مختلف وجوهه ، ودراسة بوادره وطبيعته ، وعلله وآثاره . وهذه واحدة من أقدم نظرياتهم — وإن كانت فى الواقع مستعارة من أفلاطون — تقول :

« إن الله عز وجل بلطيف حكمته ، خلق كل روح مدوّرة على هيئة الكرة ، ثم جزأها أنصافا ، فجعل فى كل جسد نصفا ، فكلّ جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه ، كان بينهما عشق ضرورة للمناسبة القديمة ، وتفاوت أحوال الناس فى ذلك من القوة والضعف على قدر طباعهم . . . وإن النفوس نورية جوهر

---

(١) كتاب « جنة الأزهار » للمؤلف ، ص ٩١ .

بسيط نزل من علو إلى هذه الأجساد فسكنها ، وإن النفوس يألف بعضها بعضا على حسب مجاورتها فى عالم النفس فى القرب والبعد »[1] .

أفيوجد أعمق صوفية وأسمى روحانية من هذا السباق الذى انطلقت فيه الأرواح تلتمس كل منها شقيقتها ؟ أولا يذكرنا ذلك بأغرودة « الفريد دى موسيه » الجميلة التالية :

أحب . . تلك هى الكلمة التى تحدو بها الطبيعة جمعاء
الريح التى تحملها والطير الذى يتبعها . .
آه ! إنك لتهمسين بها فى أجوازك المقدسة
يا نجوم الصباح ، تلك الكلمة المشجية الساحرة !
إن أوهن نجم بينك حين خلقه الله
قد رام أن يعبر السهول الأثيرية
طلبا للشمس معشوقته الخالدة ؛
فانطلق فى قلب الليالى العميقة .
ولكن نجما آخر كان يحبها . .
فضت الكواكب فى رحلة حول السديم

(رولا : النشيد الخامس)

ولنذكر الآن بعض تعريفات الحب ، فهى تبين لنا صفات الحب

---

(١) المسعودى : المرجع السابق ذكره . الجزء السادس ، ص ٣٧٩ و ٣٨٠

العربي خيراً مما تبينها البحوث المستفيضة . فقد قالوا : « إن الحب قوة خارقة تغمر القلب فى تأمل محاسن الحبيب » . وقالوا : « إنه عاطفة طاغية مسيطرة يخلقها الخيال والشهوة » . كما قالوا أيضاً : « إنه ضرب من السحر ، وجنون عبقرى يصيب أهل الفطنة وذوى القلوب الرقيقة » . وقد لاتقنع بهذا القدر ، ولا يروى هذا القول ظمأك إلى العلم بالحب ، فتعال بنا إلى مجلس وزير هارون الرشيد ، يحيى بن خالد بن برمك ، ذلك الرجل الكريم ، حيث يتناول الفقهاء المدققون موضوع الحب بحديث شهى ممتع :

يقول أبو مالك الحضرمى : « أيها الوزير ، العشق نفث السحر ، وهو أخفى وأحر من الجمر ، ولا يكون إلا بازدواج النفسين وامتزاج الشكلين ، وله تغول فى القلب كتغول صبب المزن فى خلل الرمل ، وهو ملك على الخصال ، تنقاد له العقول وتسكن له الآراء »[1] .

ويقول هشام بن الحكم الكوفى :

« أيها الوزير . العشق حبالة ينصبها الدهر فلا يصيد بها إلا أهل التخالص فى النوائب ؛ فإذا علق المحب فى شبكتها ونشب فى أثنائها فأبعد به أن يقوم سليما أو يتخلص وشيكا . ولا يكون إلا من اعتدال الصورة وتكافؤ فى الطريقة وملاءمة فى الهمة . له مقتل فى صميم الكبد ومهجة

---

(١) المسعودى الجزء السادس ص ٢٦٨ وما يليها .

القلب ، يعقد اللسان الفصيح ويترك المالك مملوكا والسيد خولا حتى يخضع لعبد عبده » .

ويقول إبراهيم بن يسار النظام : « العشق أرق من السراب وأدب من الشراب وهو من طينة عطرة عجنت فى إناء الجلالة ، حلو للمجتنى ما اقتصد ، فإذا فرط عاد خبلا قاتلا ، وفساداً معطلا ، لا يطمع العلاج فى صلاحه ، له سحابة غزيرة تهمى على القلب فتعشب شغفا وتثمر كلفا ، وصريعه دائم اللوعة ضيق المتنفس يشارف للزمن طويل الفكر ، إذا أجنه الليل أرق وإذا أوضحه النهار قلق ، صومه البلوى وإفطاره الشكوى » .

ويقول على بن منصور : « العشق أيها الوزير داء لطيف المرى يمتزج بالنفس ويخامرها ويمشى فى الآراء فيقبض فيها ، لا يصحو شاربه ولا يفيق نزيفه[1] » .

وكانوا ثلاثة عشر يتناقشون على هذا النحو .

وإذ لا نستطيع إيراد جميع أقوالهم ، فحسبنا أن ننقل شيئا من أفكارهم :

— إن المحب تضىء نفسه شعلة الهوى ويتألق كيانه كله ويسمو بصفاته على الآخرين .

---

(١) المسعودى الجزء السادس ٣٦٨ وما يليها : المرجع السابق

– مما يميز الطبائع الرقيقة قدرتها على أن تحب .

– العشق سوانح تسنح للمرء ، تعجزه تارة وتيئسه أخرى ، وهى التى تضرم أحشاءه بوجد قلبه .

– إنه زهرة الشباب وجنة الكرم وسحر النفس ومسرحها . وإنه ليمتزج فيها بأنبل العناصر وأنقاها . وإنه ليخلع على أهله روح المودة والبقاء .

وشتان بين هذا وبين تعريف « مارك أوريل » للحب بأنه « رجفة صغيرة » أو أنه « الصلة بين جلدين وتبادل نزوتين » !

ونحن لم نستشهد بعد بشعرائنا وهم وحدهم الذين يستطيعون الإفصاح عما يمتاز به الحب العربى من جمال بالغ ورقة سامية ووجدان حنون خاشع ، ولم نرو بعد قصة واحدة من « شهداء الغرام » ، ولم نقتطف من أخبار العشاق أسطورة أو أحدوثة . . .[1] ولسوف نقتصر فيما يلى على إيجاز قصتين غراميتين إيجازاً شديداً يجعل منهما زهرتين أو ثمرتين اقتلعتا فى عنف من شجرة الحب ، فذهب عنهما ما كان لهما بين الأغصان من شذى ونضرة ، ولكنهما لا تزالان من أزهار الحب وثمراته . ولعلكم مستطيعون – رغم ما ألم بهما – أن تتذوقوا حلاوتهما ، ولعل سحرهما يسرى بنشوته فى نفوسكم .

(١) يحيل المؤلف قارىء اللغة الفرنسية إلى كتابه « جنة الأزهار » ، الذى ترجم فيه نخبه من شعر الغزل .

قيس وليلى

كان قيس فتى وسيم الطلعة جواداً مقداما ، مقاتلا ، وشاعراً فى الوقت ذاته . ويقال إنه ارتجل أبياته الأولى ولما يتجاوز السابعة من عمره . وكانت ليلى سمراء قصيرة القامة فصيحة اللسان يزين خدها الأيمن شامة . وقد نشأ بينهما الحب فيما يروى على النحو التالى :

خرج قيس فى ذات يوم على ظهر ناقة رشيقة إلى الخلاء مرتاضا . وسرعان ما وصل إلى ينبوع قد اجتمعت حوله من نساء الحى شابات يتحادثن . فحياهن فى أدب حلو ، وخاطبهن فى فصاحة نادرة . فدعونه إلى الجلوس فى حلقتهن . وكانت بينهن ليلى ، فمنذ وقع بصره عليها ، احمر وجهه وامتقع ، وارتعد ولم يستطع أن يتمالك نفسه . ولكى يستعيد شيئا من رباطة جأشه ، تساءل قائلا : « هل من طعام ؟ » فأجابته ليلى فى دلال : « يا ابن الكرام ، ما لدينا من طعام » . فنهض قيس إلى ناقته ونحرها لساعته . وريثما ينضج اللحم ويطيب ، راح يقطع الوقت مع ليلى بحديث طلى حبيب ، تناولا فيه الشعر والشعراء . . حتى قالت له ليلى فى رقة حانية : ألا تنظر هل نضج الشواء ؟ فدنا من النار قيس وقد أعماه الهوى ، واضعا يديه فى لهبها وما درى ، حتى غشى عليه وهوى . .

فبادرت ليلى إلى إسعافه ، فشمرت عن ذراع بضة حسناء ، واختطفت من خمارها شريطا تعصب الداء . . فأنعشه ريحها وراح يتأمل فى نشوة ذراعها ويتغزل فى شعرها وقد جن غراما بها . .

ومما قاله هذا المجنون فى حبه وجنونه :

وإنى لينسيني لقاؤك كلما لقيتك يوما أن أبثك ما بيا
وقالوا به داء عيـاء أصابه وقد علمت نفسى مكان دوائيا

ولكن هذا الدواء قد حرم على ذلك العاشق المسكين . . . فقد زفت ليلى إلى غيره وغادر هو قبيلته ، هائما فى الصحراء يبث الطير أشجانه ، ويفضى إلى الينابيع بسره . . حتى جرح فى ذات يوم مهاة ، وهو يرى فى عينها نظرة ليلى وسحرها . . فخيل إليه أنه قد جرح من يحب ، فلفظ روحه العانية ، ومات صريع يأسه وهواه !

عروة بن حزام وعفراء[1]

فقد عروة أباه وهو فى ميعة الصبا ، فكفله عمه « حصر » وعنى بتربيته . ولما رشد الفتى طلب يد ابنة عمه « عفراء » فوافق أبوها ولم توافق أمها ، إلا بمهر غال يسوق شطره إليها ، فعزم على الرحلة وصحبه فى طريقه

---

(١) رأينا إتماماً للفائدة ، إثبات خبر عروة بشيء من التفصيل ، من الأغانى جـ ٢٠ ص ١٥٢ . (تحقيق)

فتيان من بنى هلال بن عامر كانا يألفانه . . . حتى قدم على ابن عم له موسر بالرى ، فلقيه وعرفه حاله وما قدم من أجله ، فوصله وكساه وأعطاه مائة من الإبل ، فانصرف بها إلى أهله .

وقد كان رجل من أهل الشام من أنساب بنى أمية نزل فى حى عفراء ، فرأى عفراء — وكان منزله قريباً من منزلهم — فأعجبته فخطبها إلى أبيها ، فاعتذر إليه وقال : قد سميتها إلى ابن أخ لى يعدلها عندى ، وما إليها لغيره سبيل . فقال له : إنى أرغبك فى المهر . قال : لا حاجة لى بذلك . فعدل إلى أمها فوافق عندها قبولا لبذله ، ورغبت فى ماله ، فأجابته ووعدته ، وجاءت إلى زوجها وقالت : أى خير فى عروة حتى تحبس ابنتى عليه ، وقد جاءها الفتى يطرق عليها بابها ؟ وظلت به حتى نزل على رأيها . . وفى الغد تمت خطبة عفراء إليه بعد حفل كبير . . وقد قالت عفراء قبل أن يدخل بها :

يا عرو إن الحى قد نقضوا عهد الإله وحاولوا الغدرا

ثم ارتحل بها زوجها بعد ثلاثة أيام إلى الشام ، وعمد أبوها إلى قبر عتيق فجدده وسواه ، وسأل الحى كتمان أمرها . وقدم عروة بعد أيام فنعاها أبوها إليه ، وذهب به إلى ذلك القبر ، فمكث يختلف إليه أياماً وهو مضنى هالك ؛ حتى جاءته جارية من الحى ، فأخبرته الخبر ، فتركهم وارتحل إلى الشام حتى بلغ دار عفراء ، فسأل جارية لها أن تدفع خاتماً له إلى مولاتها . فأنكرت منه ذلك ، فما زال بها حتى رقت له . . ومن ثم دفع

بالخاتم فى صحن اللبن ، فلما شربت رأته فعرفته وشهقت ، ثم قالت : أصدقيني عن الخبر ، فصدقتها . فلما جاء زوجها أخبرته خبره ، فأكرمه وتركه مع عفراء يتحدثان ، وأوصى خادماً له بالاستماع عليهما وإعادة ما تسمعه منهما عليه . فلما خلوا تشاكيا ، فطالت الشكوى وهو يبكى أمر بكاء . ثم أتته بشراب وسألته أن يشرب فقال : والله ما دخل جوفى حرام قط ، ولا ارتكبته منذ كنت ، ولو استحللت حراماً ، لكنت قد استحللته منك ، فأنت حظى من الدنيا ، وقد ذهبت منى وذهبت بعدك فما أعيش ، وقد أجمل هذا الرجل الكريم وأحسن وأنا مستح منه ، ووالله لا أقيم بعد عمله مكانى . . وإنى عالم أنى أرحل إلى منيتى . فبكت وبكى وانصرف . فلما جاء زوجها أخبرته الخادم بما دار بينهما ، فقال : يا عفراء ، امنعى ابن عمك من الخروج . فقالت : لا يمتنع ، هو والله أكرم وأشد حياء من أن يقيم بعد ما جرى بينكما . فدعاه وقال له : يا أخى ، اتق الله فى نفسك ، فقد عرفت خبرك ، وإنك إن رحلت تلفت ، ووالله لا أمنعك من الاجتماع معها أبداً ، ولئن شئت لأفارقنها ولأنزلن عنها لك . فجزاه خيراً وأثنى عليه .

فلما رحل عنهم نكس بعد صلاحه ، وأصابه غشى وخفقان . فكان كلما أغمى عليه ، ألقى على وجهه خمار لعفراء زودته إياه فيفيق . ولقيه فى الطريق عراف اليمامة « ابن مكحول » فقال له عروة : ألك علم بالأوجاع ؟ قال : نعم . فأنشأ يقول :

ما بى من خبل ولا بى جنة ولكن عمى يا أخى كذوب
أقول لعراف اليمامة داونى فإنك إن داويتنى لطبيب
فواكبدا أمست رفاتا كأنما يلذعها بالموقدات طبيب
عشية لاعفراء منك بعيدة فتسلو ولا عفراء منك قريب
فوالله لا أنساك ما هبت الصبا وما عقبتها فى الرياح جنوب
وإنى لتغشانى لذكراك هزة لها بين جلدى والعظام دبيب

قيل ولم يزل فى طريقه حتى مات قبل أن يصل إلى حيه بثلاث ليال ، وبلغ عفراء خبر وفاته فجزعت جزعاً شديداً وقالت ترثيه :

ألا أيها الركب المخبون ويحكم بحق نعيتم عروة بن حزام
فلا تهنئ الفتيان بعدك لذة ولا رجعوا من غيبة بسلام

ولم تزل تردد هذه الأبيات وتندبه بها حتى ماتت بعد أيام قلائل من موته.

والآن هل يريد القارىء أن يلم ببعض الحوادث ، ويقف على بعض اخبار المجتمع فى الصحراء ؟ فلنفتح معاً إذن كتاب « مسارح العشاق » لأبى محمد جعفر السراج — وإنه لعنوان ينطوى على كل معانى الفروسية .

بعد أن سمع عروة بن زهير ما رواه رجل من بنى عذرة من قصص الحب فى قبيلته ، قال : « الحق أنكم يا بنى عذرة أشد الناس إحساساً بالحب» . فأجابه الآخر : «أجل ، والله إن هذا لصحيح ، فقد عرفت فى قبيلتى ثلاثين فتى قضوا نحبهم وما مرضوا بغير الحب » .

وعن سهل بن سعد قال : حينما كنت فى الشام ، عرض على صديق

أن أذهب معه لزيارة الشاعر جميل وكانت قد استفحلت علته ، فوجدته يفرط فى روحه مستسلماً للموت . . . فسألنى وهو ينظر إلىّ : ما تظن يا ابن سعد برجل عاش خمسين سنة لم يقترف إثماً ولم يشرب خمراً ولم يسفك دماً من غير حق ، وشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله؟ فأجبته : أظن أن هذا الرجل يستطيع أن يعتمد على رحمة الله وإنه لمن الناجين ، ولكن من هذا الرجل ؟ فأجابنى : إنه أنا .. فقلت : هذا هو أغرب ما سمعت ، أو لست أنت جميل الذى يتغنى من عشرين سنة بجمال بثينة وحبها؟ فأجابنى : هأنذا فى آخر أيام الدنيا وأول أيام الآخرة :

لا والذى تسجد الجباه له ... مالى بما دون ثوبها خبر
ولا بفيهـا ولا هممت به ... ما كان إلا الحديث والنظر

وقالت سكينة بنت الحسين بن على لعزة يوماً : أريد أن أسألك عن معنى بيت كثير :

قضى كل ذى دين فوفى غريمه ... وعزة ممطول معنى غريمهـا

فعرا عزة الخجل وقالت : « كنت قد وعدته بقبلة » فبادرتها سكينة قائلة : أسرعى بربك إلى الوفاء بها ولينزل علىّ وزرها .

وجملة القول أن الحب العربى الحق[1] — أى الخالص من كل أثر

---

(١) هذا النوع من الحب هو « الحب العذرى » ولم يكن معروفاً عند العرب فى العصر الجاهلى . راجع الدكتور طه حسين : « الغزلون والغزل نشأته وأسبابها » فى « حديث الأربعاء » جـ١ ص ٢٢٩ – ٢٤٠ طبعة الحلبى سنة ١٩٣٧ . (تحقيق)

أجنبي — حب شاعرى عفيف ، ساذج وعميق ، بسيط وجليل ، قوى الأثر عظيم الخفاء ، كل ذلك فى وقت واحد . ولقد أجاد الأستاذ ه . شانتافوان (H. Chantavoine) إذ يقول : « إنه تعبد حالم رقيق ، تنشط فيه العاطفة أكثر مما ينشط الحس ، ويختلط فيه احترام المرأة المحبوبة احتراماً يقرب من الحياء — دون جرأة أو عنف — بحمية الشهوة ، ويلمس الناظر فيه العينين قد خلبتا ، والجسد متألماً يحترق ، والقلب فوق هذا كله هو الذى يخفق ومع كل خفقة تردد زفرة » .(١)

ولنبادر الآن إلى إكمال ما تقدم، منبهين إلى أن الحب لم يدم على هذا الحال ، وأن الأمور قد فسدت فيما بعد بل واشتد فسادها . فقد درس العرب الحب ، بل ومارسوه فى البداية وقدسوه كما مارسوا الدين وقدسوه ، ثم اتخذوه فيما بعد مادة للظرف والدعابة ، وأخيراً أسرفوا فى المجون . وتلك أطوار توازى ما طرأ من تغيرات متلاحقة على الأخلاق والتقاليد ، كما توازى تطور حال المرأة فى المجتمع العربى .

ولما كان الحب صورة تجلو روح الحبيب ، وتكون حتماً فى مستوى المرأة التى أوحت به — أصبح لزاماً علينا أن نتناول بالبحث حال المرأة الاجتماعية قبل الإسلام وبعده .

(١) صحيفة « الديبا » ٢١ أكتوبر ١٩١٣ .